

الجمعية التفاضلية للبتروكيمياويات

## من ذكريات الهجرة المحيية

المحاضرة التي ألقاها بدار الجمعية

الأستاذ حسن كامل الملقاوى

وكيل وزارة الخزنة السابق

في يوم الأربعاء ٢٧ من محرم ١٣٩٦ هـ الموافق ٢٨ من يناير ١٩٧٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها المستمعون الكرام

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فإنى أحمد إليكم الله الذى شرفنا بالإسلام وجعلنا من المسلمين ، وكيف لا نحمده سبحانه على هذه النعمة الكبرى وقد قال تعالى ( إن الدين عند الله الإسلام ) كما قال عز وجل ( ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ) ثم أصلى وأسلم على صاحب الهجرة سيدنا ومولانا محمد الذى جاءنا بالهدى ودين الحق وعلّمنا الكتاب والحكمة وربانا وزكّانا بأقواله الشريفة وأفعاله المنيفة وأحواله الرضية العفيفة فكان الأسوة الحسنة لمن أراد أن يتخذ إلى ربه سبيلاً، ورضى الله عن أصحابه الكرام البررة الذين كانوا أسبق المؤمنين تأسياً به وخير القرون بصحبته المباركة ، وأسترضى الله سبحانه عن ساداتنا التابعين وتابعى التابعين ومن والاهم بإحسان إلى يوم الدين وعن شيوخنا الأجلاء أجمعين .

أما بعد

فأرى لزاماً على أن أتقدم بالشكر خالصاً لمجلس إدارة الجمعية التعاونية للبتروك إذ تفضل فدعانى لالقاء هذه المحاضرة فى بداية العام الهجرى الجديد فأتاح لى فرصة الالتقاء بصفوة من أخوانى المؤمنين والمؤمنات والنحدث معهم فى ذكرى الهجرة الجيدة وهى ذكرى عطرة تربط ماضينا بحاضرنا ومستقبلنا وقد جعل الله سبحانه فى قصص السلف عبرة

للخلف ، وبين جل شأنه أن الذين ينتفعون من قصص أسلافهم هم أولو الألباب من العقلاء ، فقال سبحانه ( لقد كام فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ) وقال مرة أخرى جعلنى الله وأياكم من أهل الاعتبار وهم قليل كما يقول إمامنا على كرم الله وجهه : ما أكثر العبر وأقل الاعتبار .  
أيها الأحباب :

أذن الله سبحانه لرسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم أن يهاجر من مكة إلى المدينة المنورة بعد ثلاثة عشر عاما من بعثته الميمونة وقد قال له ( وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا ) وكان أعداؤه من أهل مكة قد فكروا فى نفيه أو قتله أو حبسه كما قال تعالى فى سورة الأنفال ( وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ) ، وسيأتيكم تفصيل ذلك فيما بعد .

وقد كافح صلى الله عليه وسلم فى الدعوة إلى الإسلام كفاحا شاقا متواصلا صبر فيه صبر أولى العزم من الرسل وتحمل هو وأصحابه من السابقين الأولين أذى كثيرا فى سبيل الله عز وجل وقد شق عليه صلى الله عليه وسلم ما لقيه هؤلاء السابقين من الأذى فأمر بالهجرة بدينهم إلى الحبشة فى السنة الخامسة من بعثته العظمى التى كانت خاتمة الرسالات السماوية وقد قال لأصحابه فى رأفته المعهودة صلى الله عليه وسلم " وتفرقوا فى الأرض فإن الله سيجمعكم فقالوا له : إلى أين يارسول الله ؟ فقال لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه " .

وكانت هجرة السابقين الكرام إلى الحبشة أول هجرة في الإسلام وقد هاجر منهم أكثر من ثمانين مؤمن ومؤمنة ، وكان في طليعة المهاجرين سيدنا عثمان بن عفان وزوجته السيدة رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد دعا لهما مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : صحبهما الله ، إن عثمان أول من هاجر بأهله بعد لوط عليه السلام .

ولنلتفت في تدبر إلى قوله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : " تفرقوا في الأرض فإن الله سيجمعكم " وإلى قوله : ( حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه " وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " إن عثمان أول من هاجر بأهله بعد لوط عليه السلام " ففي هذه الأقوال الشريفة إشارة صريحة إلى أن نصر أهل الحق على أهل الباطل آت لا شك فيه ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ، وكذلك فيها إشارة صريحة إلى أن الهجرة بالدين في مرضاة الله سنة قديمة ، فقد هاجر سيدنا لوط بأهله كما هاجر سيدنا إبراهيم الخليل من أرض العراق إلى أرض الشام وإلى مكة المكرمة ، وكما هاجر سيدنا موسى من أرض مصر إلى فلسطين عليهم جميعا صلوات الله وسلامه ، وكان الأمن والإيمان والنصر لمن تبعهم من ثمرات تلك الهجرات في الدنيا ، ولهم جنات رضوان في الآخرة بما عملوا من الصالحات

وما تحملوه من الجاهدات .

كذلك نأخذ من قوله صلى الله عليه وسلم " . . . حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه " أن الهجرة بالدين ليست فرارا من الأعداء بل هي مقدمة جهاد في سبيل الله يقتضى بذل النفس والنفيس وأعداد العدة لنصر دين الله وذلك بأن يتسلح المؤمنون في أنفسهم بعزم مؤكد وحزم

لا يلين وصبر جميل واحتمال مرير فى مرضات الله عز وجل ، وهو ما كان بحمد الله من أسلافنا الصالحين رضى الله عنهم أجمعين . وقد عرفوا التصوف فقالوا : " وهو إيثار الله تعالى على ما سواه طلبا لرضاه " . ويدلنا على ذلك ما تغنى به حادى المهاجرين وهم خارجون من مكة إلى أرض الحبشة حين قال على مسامعهم واصفا حالهم :

الأهل والأوطان فراقهم صعب  
لكنه الإيمان فداؤه القلب  
والروح والأبدان فيقبل الرب  
فليقبل الرب

وإذا لم تكن الهجرة ضعفا ولا خورا فى العزيمة بل كانت إعدادا للعدة وتجميعا للقوة لمقاومة الأعداء ورد كيدهم فى مصارعة حربية ذات بطولة لأهل الحق يقهرون فيها باطل الضالين المضلين ، كما قال الحكيم العربى :

نصحناهم مرارا لم يتوبوا ولو سمعوا صرير السيف تابوا

وكذلك قوله :

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حدة الحد بين الجد واللعب

أثار الهجرة إلى المدينة المنورة :

أيها الأعداء إن الهجرة إلى المدينة المنورة ذات أثار كبيرة خالدة خلود الحق ولذلك اختارها الصحابة الكرام فى عهد أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه

مبدأ للتاريخ الهجرى مع تعدد غيرها من الحوادث الأخرى الهامة فى تاريخ الإسلام ، والصراع بين الحق والباطل صراع قديم يرجع فى تاريخه البعيد إلى بداية ظهور البشرية على هذه الأرض ، بل إنه سابق لهبوط أبى البشر آدم عليه السلام من الجنة إلى الأرض ، وأهل الحق هم حزب الرحمن وأهل الباطل هم حزب الشيطان ولا ثالث لهذين الحزبين فى بنى الإنسان .

فقد وسوس الشيطان لأبينا آدم ولأمنا حواء عليهما السلام حتى أكلا من الشجرة التى نهى الله عن الأكل منها ابتلاء وامتحانا وكشف لنا سبحانه كيف كانت الوسوسة فقال عز وجل فى سورة الأعراف ( فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وورى من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين وقاسمهما إتى لكما لمن الناصحين ، فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ونادهما ربهما ألم أنهما ألم أنهما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين . قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننا من الخاسرين . قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ) . وكانت تلك الوسوسة الأولى أول خدعة نجح فيها الشيطان حيث أقسم حائثا لأبينا آدم ولأمنا حواء عليهما السلام إنه لهما لمن الناصحين ، ولم يكونا جريا حنثا ولا خبثا ولا كذبا قبل ذلك ، وقد ورد فى تفسير قوله تعالى ( وقاسمهما إتى لكما لمن الناصحين ) أنهما أقسما عليه بالله أنه لمن الناصحين فأقسم لهما إنه لمن الناصحين ، وورد فى تفسير ( فدلاهما بغرور )

أى أهبطهما حين استمعا لوسوسته وأكلا من الشجرة من درجة عالية إلى درجة سافلة لأن التدلّية تكون من أعلى إلى أسفل ، ومعنى ( بغرور ) أى بما غرهم به من القسم وقد ظنا أن أحد لا يحلف بالله كذبا . ويسمى الشيطان الغرور كما فى قوله تعالى : ( ولا يغرنكم بالله الغرور ) وغر الشيطان فلانا أى خدعه .

وحيث ظهر لهم شؤم المعصية بأن بدت سوءاتهما بادرا معا بالتوبة إلى الله سبحانه وقالوا : ( ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننا من الخاسرين ) فقبل الله توبتهما إلا أنه سبحانه أهبطهما من الجنة إلى الأرض وأخبرهما أن العداوة ستقوم بين ذريتهم من البشر وبين إبليس وذريته من الشياطين إلى يوم القيامة .

ولم تكن خطيئة سيدنا آدم عليه السلام متعمدة بل جاءت سهوا ونسيانا ويدلنا على ذلك قوله تعالى فى سورة طه ( ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما ) وقد بادر عليه السلام بالندم وعجل بالتوبة الصادقة وكان من أثر التوبة العاجلة والندم الصادق ما حكاه جل شأنه فى قوله الكريم ( ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ) وما أشرف سيدنا آدم بإضافة ضميره إلى الله تعالى فنقله سبحانه ( ثم اجتباه ربه . . . ) .

ولو أننا قارنا موقف سيدنا آدم عليه السلام بموقف اللعين إبليس بان لنا الفرق واضحا ، فانكسار سيدنا آدم إنتهى به إلى القبول والاجتباء والذلة لله عز وأى عز ، ألسنت تراه تعالى يقول لسادتنا الصحابة فى غزوة بدر ( ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة . . . ) وفى الحديث القدسى يقول تعالى "أنا مع المنكسرة قلوبهم لأجلى " .

أما إبليس اللعين فقال فى لجاجته وسوء أدبه ( فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ) وأرجع بهذه المعصية إلى الله وذلك من كبريائه وإصراره على المعصية فكان جزاؤه اللعنة الدائمة والعياذ بالله منه ومن كيده وسوء خلقه .

وهذه العداوة التى تقوم على الدوام بين بنى الإنسان أفرادا وجماعات وأمم يبثها بوسوسته الشيطان كذلك إلى يوم القيامة حيث سأل الله أن يبقية حيا فأبقاه ، ولكنه سبحانه حذرنا كثيرا من وسوسته وفتنته وأمرنا أن نعادية ولا نطيعه فقال تعالى فى سورة فاطر : ( يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور . إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ) والغرور هو الشيطان الذى يغر الناس ويخدعه بوسوسته الخبيثة كما تقدم . فيهجس فى صدره ويقول له مثلا أقبل على كذا وكذا من المعاصى ولا تخف فإن ربك غفور رحيم .

ومن عجيب أمر الشيطان اللعين أنه هدد بالعودة فى طريق الاستقامة ليصد عنها ، واقرأوا إن شئتم ما جاء عنه فى سورة الأعراف فى قوله تعالى : ( ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين . قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين . قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها إنك من الصاغرين . قال أنظرنى إلى يوم يبعثون . قال إنك من المنظرين . قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم



وعن ايمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين . قال أخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ) .

ثم كشف لنا سبحانه عن خطورته في عداوته حيث بين لنا أنه يرانا ولا نراه فهو أخطر من أعدائنا الظاهرين الذين نأخذ حذرنا منهم ونقاومهم بكافة ما نملك من الأسلحة ويقول صلى الله عليه وسلم : " إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم في العروق " . وكذلك علمنا سبحانه وتعالى أن الشياطين يوالون أهل الكفر والضلال وذلك في قوله تعالى في سورة الأعراف ( إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ) والمعنى أنه تعالى أرسل الشياطين على الذين لا يؤمنون ومكنهم من إغوائهم بينما حمى الله المؤمنين من متابعة الشياطين في الكفر وإن كانوا يغروتهم لاقتراف بعض المآثم والمخالفات فقال تعالى للشياطين كما ورد في سورة الحجر : ( إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين . وإن جهنم موعدهم أجمعين ) ووبخ الله الكافرين في موالاتهم للشياطين في آيات كثيرة من كتابه الكريم فقال تعالى مثلا في سورة الكهف : ( وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ) .

وينخدع بعض الناس بحسن أخلاق أهل الشرك والكفر في معاملاتهم الدنيوية ويظنون أنهم خير من المسلمين في المعاملة ، وما دروا أن الكفر أو الشرك وبال على صاحبه يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا . كما ينخدع أناس آخريين ببراعة أهل الشرك والكفر

فى المخترعات التى تبهر العقل ويفوتهم أن القرآن الكريم شهد لهم بالتفوق فى علوم الدنيا ، ولكنه دمعهم بالجهل فى أمر الآخرة فقال تعالى فى سورة الروم : ( وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون . أولم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم كافرون ) .

وفى هذه المناسبة أذكر لكم أن صديقى الصالح التقى المرحوم السيد سالم جمعة سألنى عن السر فى حسن معاملة الأجانب مع كفرهم وسوء معاملة المسلمين مع إيمانهم ، فرجوته أن يمهلنى قليلا فى الأجابة على سؤاله هذا ، وإذا بى أعثر على الجواب الشافى فى كتاب تيسير الوصول ، وهو جامع الأحاديث الصحيحة فقد عثرت فيه على قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه :

" إن الشيطان أيس أن يعبد فى بلدكم هذا ولكن ستكون له طاعة فيما تحتقرون من أعمالكم وسيرضى به " وهذا الحديث الشريف يدلنا على ان الشيطان ارتضى وارتاح لكفر الكافرين ورضى بكفرهم ولم يتسلط عليهم فى أمور دنياهم فأحسنوا معاملات الناس كسبا لدنياهم ومعاشهم ، ولكن استعصى على الشيطان أن يرد المؤمنين إلى الكفر فتسلط عليهم فى معاملاتهم فأطاعوه واستهانوا بما اطاعوا الشيطان فيه فطففوا الكيل وأنقصوا الميزان واخلفوا المواعيد واكلوا حقوق الناس وحلفوا باطلا . . الخ فكان ما كان . وهذه العيوب يجب ان يردها المنصف إلى أهلها ولا يعيب الإسلام بمسلك المسلمين المخطئين الذين يخرجون بمسلكهم السيئة عن

حدود الله القوية ، والإسلام حجة على المسلمين وليس المسلمون حجة على الإسلام . وباب التوبة مفتوح للراجعين إلى الله بالاستغفار فقد قال تعالى : ( إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ) . وقد يدور في خلد أحدكم أن بعض ناشئتنا في أيامنا هذه يعتنق الشيوعية أو الوجودية أو غيرهما من مذاهب أهل الإلحاد والكفر طمعا في مكاسب دنيوية فأقول إنهم في مجموع المسلمين قلة لا يعتد بها ؛ ومن معجزات مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه نبه إلى هذه الظاهرة قبل أن تظهر وذلك في قوله الشريف : " ستكون فتن كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرا ، ويمسى مؤمنا ويصبح كافرا يبيع دينه بعرض من الدنيا " . أيها المستمعون الكرام : فلنرجع بعد ما تقدم إلى بداية الرسالة المحمدية وهي أعظم الرسالات السماوية وأعمها وأبناها لاتصال البداية بتاريخ الهجرة الميمونة إلى المدينة المنورة ولنتبين كيف كان الصراع بين الحق والباطل ولنأخذ من ذلك التاريخ المجيد العبرة للإعتبار ولا نجعله قصة نتسلى بها دون تفكير أو تدبر ، فذلك التاريخ المشرق يبرز لنا من صفحاته البيضاء الناصعة الحقائق الأتية :

خلوة رسول الله في غار حراء :

كان مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الرسالة يخلو بربه في غار حراء شهرا كاملا كل عام ، وغار حراء لا يسع إلا رجلا واحدا قائما

أو نائماً وإنك لا تستطيع أن تصل إليه في وسط الجبل إلا بعد جهد جهيد ويصيب جسدك فيه العرق شتاء قبل أن تبلغه .

وكانت أم المؤمنين سيدتنا خديجة الكبرى لا تعارض زوجها صلى الله عليه وسلم في خلوته بربه بعيداً عن أهله وولده ، لأنها كانت بنور الله الذي أودعه قلبها التقى النقى تتوقع له شأناً كبيراً وتنتظر أن يكون نبي هذه الأمة . وكان ابن عمها ورقة بن نوفل يسمع عنه منها أوصافاً رائعة تبشر بهذا الشأن وكان قد قرأ في الكتب السابقة أن نبيا من سلالة اسماعيل عليه السلام سيظهر في مكة بأكبر الرسالات السماوية وأعمها وأبقاها ، حتى قال شعرا في استبطاء ظهوره وتلهفه على إدراك رسالته - كما جاء في كتاب البداية والنهاية - قال فيه :

|                           |                             |
|---------------------------|-----------------------------|
| لججت وكنت في الذكرة لجوجا | لهم طالما بعث النشيجا       |
| ووصف من خديجة بعد وصف     | فقد طال انتظاري ياخديجا     |
| بطن المكتين على رجائي     | حديثك أن أرى منه خروجا      |
| بما خبرتنا من قول قس      | من الرهبان أكره أن يعوجا    |
| بأن محمد سيسود يوما       | ويخضم من يكون له حجيجا      |
| ويظهر في البلاد ضياء نور  | يقيم به البرية أن تموجا     |
| فيلقى من يحاربه خسارا     | ويلقى من يسالمه فلوجا       |
| فياليتي إذا ما كان ذاكم   | شهدت فكنت أولهم فلوجا       |
| ولو جافى الذي كرهت قریش   | وإن عجت بمكتها عجيجا        |
| أرجى بالدهر كرهوا جميعا   | إلى ذى العرش إن سفلوا عروجا |
| وهل أمر السفالة غير كفر   | بمن يختار من سمك البروجا    |

فإن يبقوا وأبقى تكن أمور يضج الكافرون لها ضجيجا  
وإن أهلك فكل فتى سيلقى من الأقدار متلفة حروجا

بداية الوحي :

وحيين بلغ صلى الله عليه وسلم الأربعين جاءه جبريل عليه السلام بوحي السماء وهو فى غار حراء : ( اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ) ولم يكن له صلى الله عليه وسلم عهد بجبريل عليه السلام ولا بمثل هذه الآيات الجديدة على سمعه وقلبه الطاهرين ، وقد هزته تلك الآيات الأولى التى لا عهد له بها من قبل . فذهب مرعوب الفؤاد وقال لأمنا العظيمة :

" يا خديجة ما الذى بى ؟ كنت بغار حراء ، فإذا بملك جميل الصورة قد تبدى لى وبيده صحيفة من ديباج ، وسمعه يخاطبنى : اقرأ ، فأخذت وقلت : ما أقرأ ، فأحسست أن الملك يخنقنى ويضغطنى حتى حسبت أنه الموت ، ثم أرسلنى وقال اقرأ ، فقلت ما أقرأ ، فأحسست مرة أخرى أن الملك يخنقنى ويضغطنى ضغطا أشد ، ثم أرسلنى وقال لى : اقرأ . " وخشيت أن يعود معى بمثل ما صنع بى ، فقلت : ماذا أقرأ ؟ قال ( اقرأ باسم ربك الذى خلق . . . إلى آخر الآيات التى مرت عليكم والتى انتهت بقوله تعالى : علم الإنسان ما لم يعلم ) .

" فقرأت ما قاله الملك ، وقد نقش فى قلبى ، وطبع على صفحة فؤادى فتركنى الملك وانصرف

" وهبت قائما وقد تولانى الجزع وتملكنى الفزع ، فأخذت ألتفت فى أرجاء الغار فرعا ورعبا ، أسائل نفسى : من الذى خاطبنى ؟ من الذى أقرأنى ؟ .

" وغادرت الغار مسرعا ، وقد خشيت أن يكون لحقنى مس من الجن وأصابنى ما كنت أخاف وأخشى .

" وهمت بين شعاب الجبل وأنا أتساءل : من هذا الشخص الذى تمثل لى ؟ ومن الذى عنى بما أقرأنى ؟

" وبينما أنا بوسط الجبل سمعت صوتا ينادينى : محمد ، ورفعت رأسى ، فرأيت أمامى الملك وقد تمثل لى فى صورة رجل ينادى : يامحمد ، أنت رسول الله وأنا جبريل .

" فزاد رعبى واشتد على الجزع ، ووقفنى الهلع ، فلم أجد لى نفسى مهريا ، فجعلت أدير نفسى يمينا ويسرة ، أحاول أن أصرف عن ناظرى صورة هذا الشخص الذى أمامى ، ولكنى كنت أراه أينما وليت وجهى وحيثما حولته .

" عالجت أن أتقدم أو أتأخر ، فإذا بى أرى صورة هذا الشخص تتراءى لى حيثما وجهت وجهى ، وحيث أرسل بصرى فى آفاق السماء .

وقد استمعت أمنا الكبرى إلى ذلك الحديث الصادق ، فهدأت من روعه صلى الله عليه وسلم وهى واثقة كل الوثوق أن ذلك الذى حدث هو إكرام من الله لزوجها العظيم وللبشرية جميعها ، فقالت وأجادت فى رشد ونور ورقة ولباقة :

" الله يرعانا يا أبا القاسم ، أبشر يا ابن عم واثبت ، فالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة .

" والله لا يحزنك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، وتصدق الحديث وتؤدى الأمانة " .  
 وإلى قوله تعالى ( اقرأ باسم ربك ) يشير أمير الشعراء شوقى رحمه الله فيقول فى نهج البردة :

ونودى اقرأ تعالى الله قائلها      لم تتصل قبل من قيلت له بفم  
 هناك أذن للرحمن فامتلت      أسماع مكة من قدسية النغم

تعقيب على كلام أم المؤمنين :

وقد قلت فى كتابى " أم المؤمنين - السيدة خديجة الكبرى " ، ( المطبوع فى سنة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م والذى وزعناه هدية ) تعقيبا على قولها المتقدم رضى الله عنها :  
 " يا للعقل الكبير ، والقلب المنير ، ويا للنور الذى ينبعث قويا من وراء الحجب فيظهر المحجوب أمرا واقعا ، وسبحان الله الفعال لما يشاء .  
 " فعهدنا بالنساء فى مثل هذا المقام أن تضرب على صدرها مرعوبة الفؤاد ، مرتعدة الفرائض ، فتزيد الخائف خوفا ، والمهتز اهتزازا .  
 " وهذه الزوجة اللببية تقول فى قوة يقين بالله قبل أن تدعوها الرسالة إلى الله : الله يرعاك يا أبا القاسم ، أبشر يا ابن عم واثبت .  
 " لك البشرى يا أمنا الكبرى والثبات ، ولنا البشرى منك والثبات ،

أمنت الحبيب فأمنك الله ، وبشرت الحبيب فبشرك الله ، وكان لأمته من أمنة الأمن والثبات .  
 " لك الله يا أماه ، كيف ثبت في هذا المقام وأنت تعلمين بأن زوجك لا يهتز من أمر يسير ،  
 ولا بد أن الذى هزه أمر خطير ، لأنك تعلمين علم اليقين أن غير زوجك لا يقوى على الخلوة  
 وحده فى غار حراء ، بين الجبال الشماء .

" هل توقعت أن يكون ما رأى زوجك الأمين بداية الرسالة التى بشر بها من قبل ابن عمك  
 ورقة بن نوفل ، فستبشرت فى نفسك وبشرت الزوج الأمين ، أو هل ربط الله على قلبك لتكوني  
 من المؤمنين كما ربط من قبل على قلب أم موسى وهى تلقى به فى اليم ، آمنة بالله مع  
 المؤمنين .

" بالله كيف رجوت أن يكون زوجك نبي هذه الأمة ، وكيف أكدت له بالقسم العظيم أن الله لا  
 يخزيه أبدا مع خصال الخير التى نشأ عليها وأعجبت أنت بها وأيقنت أن صاحبها لا يخزيه الله  
 أبدا .

" كان قومك يعبدون الأصنام ، ويقسمون بالألزام ، وجئت أنت تحلفين أن الله لا يخزي زوجك  
 وهو متحل بأكرم الصفات وأشرف الخصال ، فلم يكن قسمك بالآلات ولا بالعزى كما كان قومك  
 يحلفون .

" فبالله كيف وثقت أن الجزاء من جنس العمل ، فمن يعمل مثقال ذرة من خيرا يره ومن يعمل  
 مثقال ذرة من شرا يره " .



" وبالله كيف رأيت الخير فيه قبل أن يرسل رسولا ، ويشرف الناس كافة برسالته العظمى ، إذ أكثر النساء يكفرن العشير ، فكيف رأيت المكارم فيه زوجا قبل أن تريها فيه رسولا " .

" ما أعظمك يا أماه إذ كنت أول من تلقى من فمه الطاهر بداية الوحي ( اقرأ باسم ربك الذى خلق . . . . ) فذقت حلاوة القرآن الكريم قبل كل الناس رجالا ونساء " .

" فهل كنت يا أماه حين تركت الأمين مزملا وذهبت إلى ورقة تريدين أن تبشريه بما جد من أمر الوحي ، ليطمئن قلبه على ما اعتقد من قرب ظهور الرسالة ، أو كنت تريدين أن يبشرك ورقة بأن بداية الوحي هي بداية الرسالة المرتقبة ؟ " .

" قد يكون هذا أو ذاك ، إنما الذى لا شك فيه أن ورقة انتشى وجدانا حين نقلت إليه الخبر ، ولم يتمالك نفسه أن قال لك : " قدوس قدوس ، والذى نفس ورقة بيده ، لئن كنت صدقتنى يا خديجة ، لقد جاء الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى وعيسى وإنه لنبى هذه الأمة ، فقولى له فليثبت ، لقد قرب الأوان ، واستدار الزمان وأن لمكة أن تشهد الآية الكبرى .

" وما درى ورقة أنك كنت نظرت فى الأمور بنور الحق ، وقلت للأمين : أبشر يا ابن عم وأثبت ، وذلك قبل أن تذهبي لورقة بالنبا اليقين .

" وحيا الله العلامة العقاد إذ يقول رحمه الله ، فى موقفك الرائع " :  
 " علامة النبوة لا يدركها كل من يسمع بالدين ، ولو أنها عرفت من أبناء عمومتها من كان يفهم بالنبوة هذا الفهم لما كانت هذه علامتها لتصديق الدعوة ، وصرف الوجل والخشية من نفس زوجها الكريم " .

" وهى على هذه الطبيعة مميزة ، وليست طبيعة مناسبة إلى السماع والتقليد ، فما نقل عنها أنها طلبت إلى النبى عليه السلام أن يخبرها إذا جاء جبريل ، فلما أخبرها قالت : قم فأجلس على فخذى الايسرى ففعل فقالت : هل تراه ؟ قال نعم قالت فتحول إلى فخذى اليمنى ، وسألته هل تراه ؟ قال نعم فألقت خمارها وسألته ، فقال الآن لا أراه قالت يا ابن عم اثبت وأبشر . فإنه ملك وما هو بشيطان " .

" وهذا الاختبار غاية ما كان ينتظر من سيدة فى عصرها أن تمتحن به حقيقة الوحي " .  
 " ولا غرابة فيه عند المسلم وغير المسلم فى العصر الحاضر ، فإن البديهة لا تشتغل بالوحي الدينى والنظر إلى الجسد الأنثى فى وقت واحد ، ولا سيما بعد الحوار وإعادة السؤال مرة بعد مرة " .

أيها المستمعون الكرام أقول وقد عادت أمنا الكبرى بعد مقابلة ورقة بن نوفل مسرعة إلى زوجها الحبيب تزف له البشرى التى زفها إليها ابن عمها ورقة ، ولم تشأ أن توظف الزوج من نومه ، ولكنه استيقظ ينفصد العرق من جبهته ، ويبدو مستمعا إلى محدث غير ظاهر ، ثم يردد ما نقله إليه ذلك الحدث

عن ربه : ( يا أيها المدثر \* قم فأنذر \* وربك فكبر \* وثيابك فطهر \* والرجز فهجر \* ولا تمنن تستكثر \* ولربك فاصبر ) . وما كادت أمنا الكبرى تحث زوجها بما بشرها به ابن عمها ورقة حتى استدار صلى الله عليه وسلم ونظر إلى الفراش وقال متأثراً :

" انتهى يا خديجة عهد النوم والراحة ، فقد أمرنى جبريل أن أنذر الناس وأن أدعوهم إلى الله وعبادته ، فمنذا أدعو؟ ومنذا يستجيب ؟ " .

فأجابته أم المؤمنين من فورها فى لهفة المؤمنة الصادقة : " أنا أستجيب يا محمد ، فادعنى قبل أن تدعوا أى إنسان ، وإنى لمسلمة لك ، مصدقة برسالتك .

فكانت رضى الله عنها أول المؤمنات من النساء كما كان سيدنا أبو بكر أول من آمن من الرجال ، وكما كان إمامنا على بن أبى طالب أول من آمن من الصبيان الذين لم يبلغوا الحلم ، وفى سبق هؤلاء الكرام البررة إلى الإسلام يقول أمير الشعراء شوقى رحمه الله :

ناجاهمو ببينات ربه فآمنت بنت خويلد به  
فقل فيها أسبق الاناث وفى على أسبق الأحداث  
وفى الرجال لأبى بكر يد بالسبق لم يبلغ مداها سيد

لقاء مولانا الرسول مع ورقة :

وقد ذهب صلى الله عليه وسلم إلى ورقة بن نوفل ، فلم يكذ ورقة يراه حتى صاح :

" والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة ، ولتكذبين ، ولتؤذنين ،

ولتخرجن . ولتقتلن ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم ، لأنصرن الله نصرنا يعلمه " .

ثم أدنى رأسه إليه فقبل يافوخة ، ثم قال صلى الله عليه وسلم :

" أو مخرجى هم ؟ "

فأجاب ورقة : نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، ليتنى أكون فيها جذعا ( أى صغيرا ) ، ليتنى أكون حيا . وفى رواية الإمام البخارى رضى الله عنه : " وإن يدركنى يومك أنصرك نصرنا مؤزرا .

ثم لم يلبث ورقة أن توفى وفتروا الوحي ، وقد طابت نفس الرسول صلى الله عليه وسلم بما سمع من ورقة .

لنشر الدعوة وقد أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نشر دعوته فبدأ بعشيرته الأقربين تنفيذا لقوله تعالى ( وأنذر عشيرتك الأقربين ) فقابلوا دعوته بعداوة وحسد ولكنه واصل الدعوة غير عابئ بذلك كله ، ولا عجب فهو كبير أولى العزم من الرسل عليه وعليهم جميعا صلوات الله وسلامه ، وهم خمسة رتبهم الشاعر حسب أفضليتهم فى قوله :

محمد إبراهيم موسى كليمه      فعيسى فنوح هم أولو العزم فاعلم

ومعنى أنهم أولو العزم أى أشد الرسل صبورا واحتمالا فى الدعوة إلى الله تعالى . وكيف يعبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذى أعدائه وقد كان يتوقعه قبل أن يقع حين قال لأمنا خديجة رضى الله عنها : انتهى يا خديجة عهد النوم والراحة .

حسد قريش :

وقد كبر على كبار قريش أن يخص الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - بالرسالة دونهم ، فحسدوه على ما آتاه الله من فضله ، حتى أن الأحنس بن شريق أتى أبا الحكم بن هشام بن المغيرة فسأله : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ، فأجاب ماذا سمعت ، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ( أى تحملوا ديات القتل ) وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب كنا كفرس رهان ، قالوا : منا نبى يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ، والله لا نؤمن به ولا نصدقه .

وينقل إلينا كتاب الله الكريم صور من صور حسدهم فى مثل قوله تعالى فى سورة الأنفال : ( وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين \* وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ( أقول ولو كان فى مقدورهم أن يقولوا مثله كما يدعون فما الذى منعهم أن يفعلوا ذلك وهم فى موقف التحدى . ثم انظروا إلى سفه عقولهم فى طلبهم أن يعذبهم الله العذاب الأليم إن كان القرآن الكريم حقا ، فهلا قالوا : إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه .

ويصور القرآن الكريم حسدهم مرة أخرى فى قوله تعالى فى سورة الزخرف ( ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإننا به كافرون \* وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ) . وقصدوا بالرجل العظيم فى قولهم هذا رجلا غنيا كثير المال وهو مقياس العظمة فى نظرهم

الفاسد وعنوا بذلك الوليد بن المغيرة بمكة أو عروة بن مسعود بالطائف .  
وما أروع رد الله عليهم فى قوله الكريم بعد هاتين الآياتين ( أهم يقسمون رحمة ربك نحن  
قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا  
سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون ) ومعنى رحمة ربك أى النبوة وهى أشرف وأعز من  
أموال الدنيا وقد نال شرفها دونهم مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإذا كان الله تعالى  
قد ميز بتقديره وحسن تدبيره بعض الناس على بعض فى أرزاق الدنيا فهو كذلك يصطفى  
للرسالة من يشاء وقد أصطفى لها رسوله سيدنا محمد وإن كان أعداؤه أكثر منه أموالا ،  
وأموال الدنيا لا وزن لها عند الله لأنها فانية ولكنها فى نظرهم القصير هى كل شئ. ولنتعلم  
كيف هى خفية الميزان عند الله تعالى من قوله الكريم بعد الآيات السابقة :  
( ولولا يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج  
عليها يظهرون \* وزخرفا وإن كل ذلك متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين ) .  
وقد جد مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دعائه إلى الله فما زادوا إلا عنادا ونصميما  
على الكفر فأنزل الله عليه قوله تعالى فى سورة الزخرف ( أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى  
ومن كان فى ضلال مبين \* فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون \* أو نريك الذى وعدناهم

فإننا عليهم مقتدرون \* فاستمسك بالذى أوحينا إليك إنك على صراط مستقيم \* وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ) .

فاعجبوا كيف يطمس الحسد القلوب فتعمى أو تتعمى عن الحق الواضح ، فإنهم كانوا عن تجربة يلقبون رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الرسالة بالصادق الأمين ووثقوا فى رصده حتى حكموه فيما شجر بينهم من خلاف عند وضع الحجر الأسود فى الكعبة حين جدوا بناءها قبل البعثة المحمدية بخمس سنوات ، وقد أشار عليهم صلى الله عليه وسلم بالرأى الصائب الذى حقن دمائهم بعد أن هموا بالإقتتال وأخذوا برأيه وتجنبوا الحرب ، ولما بلغهم رسالة ربه كذبوه وكان الأولى بهم أن يصدقوه لأنهم لم يعهدوا منه كذبا قط قبل ذلك ، وصدق سبحانه إذ يقول : ( ومن يضل الله فما له من هاد ) ، ونعوذ بالله من الحسد وأهله والكفر وشره .

#### الحصار الجائر :

وبلغ عنادهم أشده فأعلنت قريش الحصار على بنى هاشم وبنى عبد المطلب وهم قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاضطرتهم أن يخرجوا من مكة لائذين بشعب أبى طالب فى أطراف مكة ، وسجلت قريش مقاطعتها لهم فى صحيفة جائرة علقتها فى جوف الكعبة تتضمن ألا يبيعوا لهم أو يشتروا منهم شيئا أو يتزوجوا منهم .

ودام ذلك الحصار ثلاث سنوات ، ولكنه فشل أمام الصبر النبوى الجميل ، كما فشل قبله إغراء الكفار حين قالوا لعمه أبى طالب : أن ابن أخيك عاب ديننا ، وسفه أعلامنا ، إن كان ابن أخيك طالب ملك ملكنا ، وإن

كان طالب مال جمعناه ، وإن كان مريضاً طيبناه ، فلما عرض أبو طالب ذلك على مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قولته الحازمة المشهورة :

"والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه " .

ولما فشل الحصار أمام الصبر الجميل عاد إلى داره بمكة صلى الله عليه وسلم هو وزوجته العظيمة أم المؤمنين خديجة عليها السلام ، ولكنها رضى الله عنها أجهدا الأعياء فلم تعش بعد فك الحصار أكثر من ثلاث أيام حتى أسلمت روحها الزكية إلى خالقها ورحلت إلى الآخرة راضية مرضية .

صدق وصفاء :

وكنت سيدتنا أم المؤمنين خديجة الكبرى في احتضارها صادقة صافية كعهدنا بها طول حياتها ، فلقد قالت لابنتها السيدة أم كلثوم قبل أن تلفظ أنفاسها : ليت الأجل يمهلنى حتى تنجلي هذه المحنة ، فأموت قريرة العين راضية :

فأجابتها أبنيتها الطاهرة أم كلثوم : لا بأس عليك يا أماه ، ثم خانها الجلد وخنقتها العبرات . فاستطردت أمنا خديجة الكبرى يقول : " أى ربى لا بأس على يا أبنتى ، ما من امرأة من قريش نالت ما نلت من نعيم .

" بل ما من امرأة فى هذه الدنيا نالت مثل الذى نلت من مجد ، حسبى



من دنيای أنى زوجة الحبيب المصطفى ، وحسبى من آخرتى أنى المؤمنة الأولى وأنى أم المؤمنين " .

ثم أسبلت عينها وهمست قائلة :

اللهم إنى لا أحصى ثناء عليك ، اللهم إنى لا أكره لقائك ولكنى أطمع فى مزيد من التضحية لأكون جديدة بما أنعمت على " .

ثم ما لبثت روحها الشريفة أن فاضت ، والنبي صلى الله عليه وسلم إلى جانبها يهون عليها سكرات الموت ، ويبشرها بما أعده الله لها من نعيم ، وبناتها الثلاثة زينب وأم كلثوم وفاطمة عليهن السلام ، يحطن بفراشها ويودعونها قبل الرحيل .

وكانت وفاة أمنا الكبرى فى اليوم العاشر من رمضان من السنة العاشرة من البعثة المحمدية ، وقد وسدها مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قبرها الطاهر بأرض الحجون وعاد إلى داره محزوناً لفراقها وصابراً على البلاء المبين .

الفراغ الكبير :

ونستطيع أن نتصور الفراغ الكبير الذى خلفته وراءها سيدتنا خديجة عليها الرضا والرضوان ، إذ لم تكن ربة البيت وأم البنات الشريفات الباقيات فحسب بل كانت وزيرة الصدق التى شد الله بها الأزر وعضد الإسلام والمسلمين وكان منها العوت عند الشدة والأمن عند النوازل فى ظلمات الحوادث ، وما أعظم ما زكاها به مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال :

آمنت بي حين كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس وورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء .

وقد كانت أمنا الكبرى خديجة أطول الأزواج الطاهرات عشرة لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد عاشته ربع قرن من الزمان ولم يقع ذلك لغيرها ولم يكن فى داره بمكة المكرمة غيرها فإنه لم يتزوج زوجة أخرى فى حياتها ، وتحكى السيدة عائشة ما لمستته من إعزاز السيدة خديجة فتقول رضى الله عنها وعن سائر أمهات المؤمنين :

" ما غرت من امرأة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما غرت من خديجة لما كنت أسمع من ذكره لها ، وما تزوجنى إلا بعد موتها بثلاث سنين .

وقد علمنا مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اعتزازه بأمنا الكبرى خديجة كيف يكون الوفاء لأهل الصدق والصفاء حتى بعد موتهم ، فقد كان صلى الله عليه وسلم إذا ذبح شاه يقول : أرسلوا إلى أصدقاء خديجة وقد كلمته أمنا عائشة فى ذلك فقال وما أروع ما قال فى وفائه الكامل : إنى أحب حبيبها ، فما أجل ذكرى أمنا خديجة أولى المؤمنات ، وما أنهاها بالقصر الذى بشرها به الله فى الجنة فقد روى الإمام البخارى بسنده فقال : جاء جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله هذه خديجة قد آتت ومعها إناء فيه إدام فإذا هى أتتك فاقراً عليها السلام من ربها ومنى ، وبشرها ببيت فى الجنة من قصب<sup>١</sup> ، لا صخب فيه ولا نصب " .

<sup>١</sup> - قصب أى لؤلؤ .

فقال صلى الله عليه وسلم : ياخديجة ، هذا جبريل يقرئك السلام من ربك ، فأجابت الله السلام ، ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام .

وقد عقب على ذلك الحديث الشريف فقلت فى كتابى عن السيدة خديجة رضى الله عنها :  
لقد بشرك الله يا أماه بسلامه عليك بأنه راض عنك ، وما أسمى رضاه ، فليس وراء رضاه الله لأهل الإيمان غاية ، وليس بعده لمؤمن أو مؤمنة مطمع ، وكيف وهو الأفق الأعلى الذى تصبوا إليه أرواح المحبين ، ويقف عنده شوط الصديقين والأبرار المحبوبين من عباده المقربين .

ما سلم عليك إلا بعد أن اجتباك واصطفاك على نساء العالمين ، فكنت السابق الأولى فى هذه الأمة التى هى خير أمة أخرجت للناس ، فأنت المؤمنة الفضلى فى هذه الأمة ، وقد بلغك سلامه فى الدنيا قبل غيرك من المؤمنين أو المؤمنات الذى سيحييهم سبحانه فى الجنة بالسلام ، فما أجل مقامك بين مقامات الكرام :

جناته قد فتحت لك كلها فتخيري ما شئت يا أماه

موت أبى طالب :

وانضاف إلى وفاة أمنا خديجة عليها السلام موت أبى طالب عم مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان أبى طالب يجيره ويحميه من أذى أعدائه أداء لواجب العصبية لبني هاشم وقد كان أبو طالب سيد مكة يدعى بينهم " بيضة البلد " ولهذا قيل للسنة العاشرة من البعثة

التي فقد فيها مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجته خديجة الحبيبة ونصيره أبا طالب " عام الحزن " .

#### خذلان أهل الطائف :

وقد نالت قريش من مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم تناله في حياة أبي طالب ، فذهب مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف يدعوهم إلى الله ويستنصر بهم على أعدائه من أهل مكة ، فلم يستجيبوا له وردوا عليه ردا قبيحا بل لقد ضربه سفهاؤهم بالحجارة حتى أدموا قدميه ، وكان زيد بن حارثة رضى الله عنه يجلس وراءه ليقويه بنفسه رضى الله عنه .

#### تضرع نبوى :

وقد تضرع مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ربه وهو بالطائف ودعا دعاءه المشهور قائلا : " اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني<sup>١</sup> ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا ابالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بى غضبك أو يحل على سخطك لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك " .

<sup>١</sup> - أى يستقبلنى بوجهه كريبه .

### اللقاء الأول بالأنصار :

واستجاب سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم ودبر له أمره ومهد لهجرتة إلى المدينة المنورة تمهيدا عجا ، وكان مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض دعوته على قبائل العرب فى موسم الحج فلقى من أهل المدينة رهط سعيد من الخزرج فى منى فقال لهم : من أنتم ؟ قالوا نفر من الخزرج قال : أمن موالى يهود ! قالوا : نعم قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى .

قال ابن إسحاق : فجلسوا معه . فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، قال : وكان مما صنع الله بهم فى الإسلام أن اليهود كانوا معهم فى بلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأوثان ، وكانوا قد غزوه فى بلادهم ، فكانوا إذا كان بينهم شئ قال اليهود لهم : إن نبيا مبعوث الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم .

قال : فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ، ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض : يا قوم : تعلمون والله إنه النبى الذى تواعدكم به اليهود ، فلا يسبقنكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا إنا تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم وندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبتك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك .

قال : فلما قدموا المدينة إلى قومهم ، ذكروا لهم رسول الله صلى الله

عليه وسلم ودعوهم إلى الإسلام ، حتى فشا فيهم ، فلم يبقى دور من دور الأنصار إلا وفيهم ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

#### اللقاء الثاني بالأنصار :

وفي العام المقبل وفى الموسم من سادتنا الأنصار اثنا عشر رجلا ، فلاقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعقبة الأولى ، فبايعوه على بيعة النساء - وهى الواردة فى قوله تعالى فى سورة الممتحنة ( يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبائعنك على ألا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم ) - ويقول سيدى عبادة بن الصامت وهو ممن بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار عندئذ : أخذ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أخذ على النساء ألا تشركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا يسخر بعضكم بعضا ، ولا تعصونى فى معروف آمركم به .

#### وفى مناسبة بيعة النساء :

أقول : وقد دار نقاش طريف فى بيعة النساء بين هند امرأة أبى سفيان وبين مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد ورد أنه لما قال عليه الصلاة والسلام ( ولا يسرقن ) قالت هند : إن أبا سفيان رجل شحيح وإنى أصبت من ماله كذا وكذا ، فلا أدرى أيحل لى أم لا ، فقال أبو سفيان : ما أصبت من شئ فيما مضى فهو حلال ، فضحك النبى صلى الله عليه وسلم وعرفها ، فقال لها : إنك لهند بنت عتبة ؟ قالت نعم

واعف عما سلف عفا الله عنك ( وكانت فى غزوة أحد قد لاكت كبد عمه حمزة رضى الله عنه حين استشهد ) .

فلما قال صلى الله عليه وسلم ( ولا يزينين ) قالت : أو تزنى الحرة ، فلما قال ( ولا يقتلن أولادهن ) قالت ريبيهم صغاراً وقتلتموهم كباراً ( وكان أبنها حنظلة بن أبى سفيان قتله المسلمون فى غزوة بدر ) فضحك سيدنا عمر حتى استلقى وتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قال ( ولا يأتين ببهتان إلخ ) .

قالت : والله إن البهتان لقبيح ، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق ، فلما قال ( ولا يعصينك فى معروف ) قالت ما جلسنا مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك فى شئ ، قالوا فأقر النسوة بما أخذ عليهن من البيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد قال ابن الجوزى : كانت جملة النساء فى تلك البيعة ٤٥٧ ( أربعمائة وسبعا وخمسين امرأة ، ولم يوافق صلى الله عليه وسلم فى البيعة امرأة وإنما بايعهن بالكلام .

وقد عقب الإمام القرطبى على بيعة النساء فقال رضى الله عنه : ذكر الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم فى صفة البيعة خصالا ستا صرح فيهن بأركان النهى فى الدين ، ولم يذكر أركان الأمر وهى ستة أيضا : الشهاداتان ، والصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، والاعتسالى من الجنابة ، وذلك لأن النهى دائم فى كل الأزمان وكل الأحوال ، فكان الاشتراط للتنبية على الدائم أكد وقيل لأن هذه المناهى كان فى النساء كثير من يرتكبها ولا يحجزهن عنها شرف النسب فخصت بالذكر لذلك .

هذا وقد طلب سادتنا الأنصار من مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرسل إليهم من يفقههم في الدين فبعث صلى الله عليه وسلم سيدنا مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي فكان رضى الله عنه أول سفير الإسلام وقد اسلم على يديه بالمدينة المنورة سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وهما يومئذ كبا بنى عبد الأشهل وتبعهما قومهما رضى الله عنهم جميعا .

اللقاء الثالث بالأنصار :

فى العام التالى واعد الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبة فى أوسط أيام التشريق وكانوا ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين ، وبايعوه البيعة التى عرفت واشتهرت ببيعة العقبة .

ويحكى عن بيعة العقبة سيدنا كعب بن مالك وهو ممن شهدها من سادتنا الأنصار فيقول رضى الله عنه :

نمنا تلك الليلة مع قومنا من رجالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل ، خرجنا من رجالنا نتسلل القطا<sup>١</sup> حتى اجتمعنا فى الشعب ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر ابن أخيه ويتوثق له ، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب ، فقال :

<sup>١</sup> - القطا : طائر صغير .



يامعشر الخزرج<sup>١</sup> ، خزرجها وأوسها ، إن محمد منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قرمنا ممن هو على مثل ما رأينا فيه ، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده ، ولأنه قد أبى إلا الأنحياز إليكم والحق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك . وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدعوه ، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده .

وأقول تعقيباً على الكلام المتقم : إن كلام عمه العباس يؤيد ما ذهبنا إليه من أن الهجرة إلى المدينة المنورة لم يكن عن خوف أو ضعف أو هرب ، بل كان سعياً لنشر الدعوة في بيئة صالحة له ولإعداد العدة لدرء أعداء الإسلام المناوئين له والصادين عنه ، وهذا من أصالة الرأي وحزمه وعزم الأمر وصدقه ، وحق الدفاع حق مشروع ، والبادى بالأعتداء هو الظالم . فقد صد أهل مكة الناس عن متابعة مولانا رسول الله ، وأذوى أصحابه الأولين حتى اضطروهم إلى أن يهاجروا للحبشة غرباء وليس لهم فيها أهل ولا مال ، وعزموا آخر الأمر على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهدار دمه دون ذنب أو جريمة ، وأرادوا قتله حتى يتفرق دمه في القبائل فلا يستطيع بنو هاشم

<sup>١</sup> - كان يقال لمجموع القبيلتين الأوس والخزرج " الخزرج " والأوس والخزرج أخوان ، ولكن قامت بين القبيلتين في الجاهلية عداوة وحروب قبل أن يظهر الإسلام بمائة وعشرين سنة ، ثم ألف الإسلام بينهم فاتحدوا بأخوة الإسلام كما مر عيكم .

قتالهم فيقبلون الدية من قبائلهم ، ولكن الله تعالى أحبط كيدهم وعصم رسوله وأذن له في الهجرة إلى المدينة ونجاه من شرهم ، كما سيأتى تفصيل ذلك .

#### بيعة العقبة :

وقد رد سادتنا الأنصار على عمه العباس بن عبد المطلب فقالوا : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يارسول الله ، فخذ لنفسك وربك ما أحببت ، قال ، فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلا القرآن ، ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ، ثم قال :

أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ، فأخذ البراء بن معرور رضى الله عنه بيده ، وقال : نعم والذي بعثك بالحق نبيا لنمنعك مما نمنع منه أزلانا ( أى نساءنا ) فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ( أى السلاح ) ورثناها كابر عن كابر .

قال : فاعترض القول والبراء يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو الهيثم بن التيهان ، فقال : يارسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالا وإن لقاطعوها - يعنى أهل مكة واليهود - فهل عسيت إن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا !

قال فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : بل الدم الدم ، والهدم الهدم ( أى ما هدمتم من الدماء هدمناه ) أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم . أقول وفى رواية أخرى أنه صلى الله عليه وسلم قال : معاذ الله ،

المحيا محياكم ، والممات مماتكم ، ففرحوا وقالوا : هذه أيدينا فخذ لنفسك ولربك ما أحببت ، فبايعهم وقال : أخرجوا منكم اثني عشر نقيبا ليكونوا كفلاء على قومهم بما فيهم ، فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهؤلاء النقباء : أنتم على قومكم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي \_ يعنى المسلمين \_ قالوا نعم .

انتشار الإسلام بالمدينة المنورة :

ولما عاد أهل بيعة العقبة إلى المدينة المنورة أظهروا الإسلام بها فى شجاعة ووفاء ، ثم أخذ المسلمون يهاجرون سراً من مكة إلى المدينة ، ولم يبق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا إثنان من السابقين الأولين هما : سيدنا أبو بكر الصديق وسيدنا على ابن أبى طالب رضى الله عنهما ، وقد شجع رسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرين على الهجرة إلى المدينة المنورة.

وقال لهم : " إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانا ودار تآمنون بها ، قال ابن إسحق فخرجوا إرسالا ( أى جماعة بعد جماعة ) وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة حتى يأذن له ربه بالهجرة إلى المدينة المنورة .

سعادة المهاجرين والأنصار :

ومن ذلك نرى أن بيعة العقبة كانت فاتحة خير للمسلمين عامة والمهاجرين والأنصار خاصة ، فما أسعد الأنصار ببيعة العقبة فى دنياهم

وأخراهم فقد خلصوا دينهم لله ، وأحبوا بكلياتهم وجزئياتهم رسول الله ، فدعوه لبلدهم ، وفدوه بأرواحهم وأموالهم ، وأحبوا بحب الله ورسوله ، إخوانهم المهاجرين ، وآثروهم على أنفسهم وأثبت الله لهم ذلك الإيثار ، وما أسعد المهاجرين بالحفاظ على عقيدة الإسلام والفرار بها بعيداً عن أهل السوء ، والاستقرار بها بين الصالحين ، وليهنأ سادتنا المهاجرين بأن سماهم الله " الصادقين " وليهنأ سادتنا الأنصار بأن سماهم الله " المفلحين " وذلك فى قوله تعالى فى سورة الحشر ( للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون \* والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ) وعلى الأجيال التى تلت جيل المهاجرين والأنصار ومنهم جيلنا وجميع الأجيال بعدنا إلى يوم القيامة أن يذكروهم بفضلهم وسبقهم ويجب علينا إذن أن ندعوا لهم بالمغفرة كما قال تعالى بعد الآيتين السابقتين ( والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ) .

مؤامرة كفار مكة يكشفها الله تعالى :

ولما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد صار له شيعة وأصحاب من غيرهم وبغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إلى المدينة المنورة ، عرفوا أنهم قد نزلوا دار وأصابوا منهم منعة ،

فحذروا خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ، فاجتمعوا فى دار الندوة - وهى دار كانت لقصى بن كلاب وكانت قريش لا تقضى أمراً ألا فيها - وتشاوروا فيما يصنعونه فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خافوه .

فأطلعه الله تعالى على ما تشاوروا فيه فى سورة الأنفال بقوله الكريم ( وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ) فقد اختلفت آراؤهم بين حبسه فى بيته يغلونه عليه ، فخافوا أن يقاتلهم بنو هاشم - وهم قومه - بدافع العصبية ويخلصوه من أيديهم ، وبين أن يخرجوه من مكة فخافوا أن يجتمع عليه الناس لحلاوة منطقه فيعود إلى مكة ويقاتلهم بهم ، وبين أن يختاروا من كل بطن من بطون قبائلهم شابا جلدا ليقتلوه قتلا جماعيا فيتفرق دمه فى القبائل ، فلا يقوى بنى هاشم على حربهم فإذا طلبوا ديته قدموها لهم ، وهذا الرأى الأخير هو الذى إستحسنوه وأجمعوا عليه بعد التشاور .

قال ابن إسحق :

فأتى جبريل عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا تبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه ثم يقول ابن إسحاق : فلما كانت عتمة من الليل - اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام فيثبوا عليه ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانهم ، قال لعلى بن أبى طالب : نم على فراشى وتسج<sup>١</sup> ببردى<sup>٢</sup> هذا الحضرمى<sup>٣</sup>

<sup>١</sup> - تسج ببردى أى اجعل ثوبى غطاء لك .

<sup>٢</sup> - بردى أى ثوبى .

<sup>٣</sup> - الحضرمى أى من نسيج حضرموت .

الأخضر فتم فيه ، فإنه لن يخلص لك شئ تكرهه منهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينام فى برده ذلك إذا نام . وكان الكفار كلما نظروا إلى البرد الأخضر ظنوا أن النائم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى ينون قتله فى جنح الليل .

خروج الرسول من بينهم وهم لا يشعرون :

وخرج عليهم مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ حفنة تراب فى يده ، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلم يروه ، ( وكم له صلى الله عليه وسلم من معجزات ) وجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو من سورة يس قوله تعالى : ( يس \* والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين \* على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم \* لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون \* لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون \* إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون \* وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون ) حتى فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه الآيات ولم يبق منهم رجل إلا قد وضع على رأسه ترابا ، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب .

وفاء الإمام على :

وما أعظم وفاء الإمام على كرم الله وجهه فى نومه مكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحق له أن يتحدث بفضل الله عليه فى ذلك حين قال رضى الله عنه :

فديت بنفسى خير من وطئ الثرى

ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجر

وقد شاء الله تعالى أن يسعد بعد هجرته وبعد غزوة بدر بزواجه من سيدتنا الزهراء وهى سيدة نساء العالمين وأن يكون من صلبه ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصدق سبحانه إذ يقول : ( إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ) .

قال ابن إسحق : فأتاهم آت مما لم يكن معهم فقال : ما تنتظرون ههنا ؟ قالوا محمدا ، قال خيبكم الله ، والله خرج عليكم محمد ، ثم ما ترك منكم رجلا إلا وقد وضع على رأسه ترابا وانطلق لحاجته ، أفما ترون ما بكم ؟

قال ابن إسحق : فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليها تراب ، ثم جعلوا يتطلعون فيرون عليا على الفراش متسجيا ببردة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقولون : والله إن هذا لمحمد نائما عليه برده ، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا فقام على كرم الله وجهه عن الفراش فقالوا : والله لقد كان صدقنا الذى حدثنا .

الإذن بهجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

قال ابن إسحاق : حدثنى من لا أتهم عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، قالت : كان لا يخطئ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار إما بكرة وإما عشية ( أى صباحاً ومساء ) حتى إذا كان اليوم الذى أذن فيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة ، والخروج من مكة بين ظهري قومه ،

أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة ( أى ظهراً ) فى ساعة كان لا يأتى فيها .  
 قالت : فلما رأى أبو بكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما جاء رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم إلا لأمر حدث ، قالت فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره ، فجلس رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم ، وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختى أسماء بنت أبي بكر ، فقال رسول  
 الله صلى الله عليه وسلم : أخرج من عندك .

فقال يارسول الله إنما هما ابنتاى وفى رواية إنما هم أهلك ، وما ذاك ؟ فذاك أبى وأمى ، فقال  
 : إن الله أذن لى فى الخروج والهجرة ، قالت : فقال أبو بكر ، الصحبة يارسول الله قال :  
 الصحبة . قالت ، فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحد يبكى من الفرح حتى رأيت أبا بكر  
 يبكى يومئذ .

ثم قال : يارسول الله : إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتهم لهذا ، فاستأجر عبد الله بن أريقط  
 - وكان مشركا - يدلهم على الطريق ، فدفعا إليه راحلتيهما ، فكانت عنده يرعاهما  
 لميعادهما .

قال ابن إسحق : ولم يعلم - فيما بلغنى - بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد حين  
 خرج إلا على بن أبى طالب وأبو بكر الصديق وآل أبى بكر .

أما على فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأخبره بخروجه وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى  
 يودى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التى كانت عنده للناس ، وكان رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم ليس بمكة



أحد عنده بشئ يخشى عليه إلا وضعه عنده ، لما يعلم من صدقه وأمانته ، صلى الله عليه وسلم .

أقول : فانظر إلى غرابة موقفهم منه صلى الله عليه وسلم ، فأنهم كانوا يأتمنونهم على نفائسهم ليقينهم بصدقه وأمانته . فلما دعاهم إلى الله كذبوه مع إنهم لم يجربوا عليه كذبا قط ، ( ومن يضل الله فما له من هاد ) .

#### الإختبار فى الغار :

قال ابن إسحاق : فلما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج ، أتى أبا بكر أبا بكر بن قحافة ، فخرجا من خوخة<sup>١</sup> لأبى بكر فى ظهر بيته ، ثم عمدا إلى غار ثور<sup>٢</sup> فدخلا ، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع ما يقول الناس فيهما نهاره ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون فى ذلك اليوم من خبر ، وأمر عامر بن فهيرة مولا<sup>٣</sup> أن يرعى غنمه نهارا ثم يريحهما<sup>٤</sup> عليهما ، يأتيهما إذا أمسى فى الغار ، وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما من الطعام إذا أمسى بما يصلحهما .

#### وفاء أبى بكر :

قال ابن هشام : وحدثنى بعض أهل العلم أن الحسن بن أبى الحسن البصرى قال : إنتحى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر إلى الغار ليلا ،

<sup>١</sup> - الخوخة باب صغير .

<sup>٢</sup> - ثور جبل فى أسفل مكة .

<sup>٣</sup> - مولا أى عبده .

<sup>٤</sup> - يريحهما عليهما أى يرجع بالغنم بعد أن ترعى إلى الغار لتضيق آثار أقدام المتصلين بالرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبى بكر رضى الله عنه .

فدخل أبو بكر رضى الله عنه قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلمس الغار ، لينظر أفيه سبع أو حية يقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه .

أقول : وقد ورد فى مراجع السيرة أن خروجه للغار كان ليالهلل ربيع الأول من السنة الثالثة عشر من بعثته الشريفة وأقام فى غار ثور ثلاث ليال وخرج منه إلى المدينة ليلة الأثنين فوصلها لانتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول .

وها نحن رأينا كيف كان الصديق رضى الله عنه يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يفديه بنفسه ، وحق لسيدنا أبى بكر أن يفعل ذلك لأنه تعالى يقول فى كتابه الكريم ( النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ) ولا يخفاكم أن حب رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو حب لله وفى الله وبالله ، وما دام الصديق رضى الله عنه قد بلغ الذروة فى حب الرسول الأعظم ، فقد بلغ الذروة فى حب ربه الأكرم جل جلاله ، فكان بهذا الحب الأكيد المؤمن الأول فى الأمة المحمدية الكريمة ، ( إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى أثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ) فمن أنكر صحبة أبى بكر فقد كفر لأنه يكذب كلام الله الذى أثبت صحبته الحقة . ورضى الله عن سيدنا حسان بن ثابت إذ يقول فى مدحه

:

|                               |                             |
|-------------------------------|-----------------------------|
| إذا تذكرت شجوى من أذى ثقة     | فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا |
| خير البرية أتقاها وأعدلها     | بعد النبى وأفأها بما حملا   |
| الثانى التالى المحمود المشهود | وأول الناس منهم صدق الرسلا  |

ثانى اثنين :

وما أعجب أمر سيدنا أبا بكر فى سبقه وفى وصف الله له بقوله تعالى ( ثانى اثنين ) فقد كان ثانى اثنين فى الإيمان لأنه أول الرجال إسلاما بعد مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وثانى اثنين فى الغار ، وثانى اثنين فى الهجرة ، وثانى اثنين فى إمارة الحج ( بعد فتح مكة ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا عتاب بن أسيد إمارة الحج فى السنة الثامنة من الهجرة ، وولى سيدنا أبا بكر إمارة الحج فى السنة التاسعة وحج بنفسه صلى الله عليه وسلم فى السنة العاشرة كما كان رضى الله عنه ثانى اثنين فى الخلافة وثانى اثنين فى القبر النبوى الشريف فسعد بأسعد جوار فى الدنيا والآخرة ، فما أهنأه وصدق سبحانه إذ يقول ( هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ) .

أمير المؤمنين عمر يغط الصديق :

وحق لأمير المؤمنين رضى الله عنه أن يغط الصديق على تلك الصحبة الوفية فى الغار ، فقد كان يقول منوها بفضل الصديق رضى الله عنه : كنت أحب أن يكون لى يومان من أيام أبا بكر بحياتى كلها : يوم ان صحب الرسول فى الغار ، ويوم ان خالفنا فى حرب أهل الردة كما كان سيدنا عمر رضى الله عنه يقول : رحم الله أبا بكر ، إنه كان

<sup>١</sup> - أهل الردة الذين أمتنعوا عن أداء الزكاة لبيت المال بعد وفاة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد استشار سيدنا أبو بكر أهل الرأى من الصحابة فى أمرهم فقالوا : لا قبل لنا بالعرب لأن الجزيرة العربية كلها =

سيدنا وأعتق سيدنا ( يشير إلى أنه أعتق بلال بن رباح وهو عبد حبشى وكان يؤذن للصلاة فى عهد مولانا رسول الله ) فأعجب للإسلام كيف رفع العبيد إلى مقام السيادة على لسان عمر القرشى رضى الله عنه ، ورحم الله فيلسوفنا عباس العقاد إذ يقول منوها بفضل الإسلام : من بلاد العصبية خرج الإسلام الذى ينهى عن العصبية .

#### الأمانة فى الغار :

قال ابن إسحق : فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار ثلاث ومعه أبو بكر ، وجعلت قريش فيه حين فقدوه مائة ناقة لمن يرده عليهم ، وكان عبد الله بن أبى بكر يكون فى قريش نهاره معهم ، ويسمع ما يأترون به ، وما يقولون فى شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر ، ثم يأتيهما إذا مسى فيخبرهما الخبر .

وكان عامر بن فهيرة ، مولى أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه يرمى فى رعياء أهل مكة ، فإذا أمسى أراح عليها غنم أبى بكر فاحتلبا وذبح ، فإذا عبد الله بن أبى بكر غدا من عندهما إلى مكة ، أتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم ، حتى إذا مضت الثلاث ( أى الليالى الثلاث ) وسكن عنهما الناس ، أتاهما صاحبهما الذى استأجره ببعيريهما وبعير له ، وأنتهما أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما بسفرتهم . ونسيت أن تجعل لها

=<sup>1</sup>

= امتنعت عن أداء الزكاة عدا مكة والمدينة والبحرين ، ولكن سيدنا أبى بكر أصر على قتالهم وقال قولته المشهورة " والله لو منعونى عقاب بغير كانوا يؤدونه للنبي صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه ، أينقص الدين وأنا حى " وقد تم له النصر وحفظ الله على يديه الإسلام فجراه الله عن الإسلام وأهله خيرا كثيرا .

عصاما ( أى حبل تربطها به ) فلما أرتحلت ذهبت لتعلق الفسرة ، فإذا ليس لها عصام ، فحلت نطاقها فجعلته عصاما ثم علقتها به ، فكان يقال لأسماء بنت أبي بكر " ذات النطاقين " ، قال ابن هشام : وسمعت غير واحد من أهل العلم يقول " ذات النطاقين " وتفسيره أنها لما أرادت أن تعلق السفرة شقت نطاقها أثنين فعلمت السفرة بواحد وانتطقت بالآخر .

فلما قرب أبو بكر - رضى الله عنه - الراحلتين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم له أفضلهما ، ثم قال : أركب فداك أبى وأمى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا أركب بغير ليس لى ، قال فهى لك يارسول الله بأبى أنت وأمى ، قال : لا ، ولكن ما الثمن الذى ابتعتها به ؟ قال كذا وكذا ، قال قد أخذتها به ، قال هى لك يارسول الله فركبا وانطلقا ، وأردف أبو بكر الصديق رضى الله عنه عامر بن فهيرة مولاه خلفه ليخدمهما فى الطريق .

وقد عقت على شراء مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم لتلك الناقة التى هاجر عليها فى " كتابى رسول الله فى القرآن الكريم " الذى نشرته دار المعارف فى سنة ١٩٧٢ نقلت فى تعقيبى :

أرأيت كيف علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما أكثر ما علمنا ، أن نجاهد فى سبيل الله بأموالنا ، كما نجاهد فى سبيله بأنفسنا ، فقد أبى صلى الله عليه وسلم أن يقبل الناقة هدية ، ولكنه أصر أن تكون بالثمن وهو نفقة فى سبيل الله عز وجل ، وكيف لا يفعل ذلك مولانا رسول الله وهو الأسوة

الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وقد وعظنا الله تعالى فى سورة الصف فقال سبحانه :

( يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم \* تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذالكم خير لكم إن كنتم تعلمون \* يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذالك الفوز العظيم \* وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ) وما أروع آيات الله البينات لمن تدبرها وعقلها .

وقد قالت أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما ، فمكثنا ثلاث ليال وما ندرى أين وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قال حسان بن ثابت أبياتا من الشعر مطلعها :

لقد خاب قوم غاب عنهم نبيهم وقد سر من يسرى إليهم ويفتدى

قالت فلما سمعنا قوله عرفنا حيث وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن وجهه إلى المدينة وكانوا أربعة : رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر ، وعبد الله بن أريقط دليلهم .

جزع بنى هاشم :

وقد جزعت بنى هاشم لخروجه صلى الله عليه وسلم من بينهم ، حتى لقد قالت عمته عاتكة بنت عبد المطلب فى أسفها على خروجه مع أنها كانت لا تزال على دين قومها .

أعيني جودي بالدموع السواجم على المرتضى كالبدر من آل هاشم  
على المرتضى البر والعدل التقى وللدين والدنيا بهيج المعالم  
على الصادق الميمون ذى الحلم والنهى وللفضل والداعى لخير التراحم  
حرص قريش على رد الرسول :

قد حاولت قريش أن تحول بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين الهجرة إلى المدينة فجعلت  
مائة ناقة مكافأة لمن يرده عليهم ، فخرج سراقة بن مالك بفرسه يتبع أثره ، قال سراقة :  
فبينما فرسى يشتد بى فسقطت عنه فقلت ما هذا ؟ ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها فخرج  
السهم الذى اكره " لا يضره " ، فأبيت إلى أن أتبعه ، فركبت فى أثره فلما بدأ فى القوم ورأيتهم  
عثر بى فرسى ، فذهبت يداه فى الأرض ، وشقطن عنه ، ثم أنتزع من الأرض وتبعهم دخان  
الإعصار .

أرأيتم كيف وقعت المعجزة وساخت أقدام الفرس فى الأرض فلم يستطع سراقة أن يرده أو يمسه  
بسوء ، وصدق سبحانه إذ يقول ( والله يعصمك من الناس ) .

قال سراقة وهو أخذ بتلك المعجزة : فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد منع منى وأنه ظاهر ، قال  
فناديت القوم فقلت : أنا سراقة أنظرونى أكلمكم ، فوالله لا أريكم ولا يأتكم منى شئ تكرهونه  
، فقال رسول الله صلى الله عليه سلم لأبى بكر : قل له وما تبتغى منا ، فقال ذلك أبو بكر ،  
قال سراقة : قلت تكتبون لى كتابا يكون آية بينى وبينكم ، فقال رسول الله صلى الله عليه  
وسلم : أكتب له يا أبا بكر

قال سراقه فكتب لى كتابا فى عظم أو رقعة ثم ألقاها إلى : فأخذته فجعلته فى كنانتى ثم رجعت . فسكت فلم أذكر شئ مما كان .

وقد قالوا : إن أبا جهل لام سراقه سراقه حين رجع مكة بعد مطاردته لرسول الله صلى الله عليه وسلم بلا شئ ، فقال سراقه ردا عليه :

|                             |                            |
|-----------------------------|----------------------------|
| أمر جوادى إذ تسوخ قوائمه    | أبا حكم والله لو كنت شاهدا |
| رسول ببرهان فمنذا يقاومه    | علمت ولم تشكك بأن محمدا    |
| أرى أمره يوما ستبدوا معالمه | عليك بكف القوم عنه فأئننى  |
| بأن جميع الناس طرا يسالمه   | بأمر يود الناس فيه بأسرهم  |

إسلام سراقه :

قال سراقه حتى إذا كان فتح مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفرغ من حنين والطائف . خرجت ومعى الكتاب لألقاه ، فلقيته بالجرانة ( ماء بين الطائف ومكة ) فدخلت فى كتيبة من الأنصار . قال سراقه : فجعلوا يقرعونى بالرماح ويقولون إليك إليك : ماذا تريد ؟ فدنوت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على ناقته ، والله لكأنى أنظر إلى ساقه فى غرزه ( ركابه ) كأنها جمارة<sup>١</sup> فرفعت يدي بالكتاب ثم قلت يارسول ، هذا كتابك لى ، أنا سراقه .

قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يوم وفاء وبر ، ادنه ، فدنوت منه فأسلمت .

لباقة أبى بكر :

وكان بعض من يعرف سيدنا أبا بكر رضى الله عنه يرويه فى الركب

<sup>١</sup> - أى شديدة البياض كجمار النخل .



المهاجر إلى المدينة فيسأله من هذا الذى معك يا أبا بكر ؟ فيجيبهم فى لباقة : إن معى هاديا يهدينا الطريق ، ولا يسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم حذرا عليه من الأذى .  
الوصول إلى قباء :

قال ابن إسحاق : وقد وصل صلى الله عليه وسلم إلى قباء<sup>١</sup> ، ونزل على بنى عمرو بن عوف لأثنى عشر ليلة خلت من شهر ربيع الأول حين اشتد الضحى وكادت الشمس تعتل .  
ما أعجب شهر ربيع :

أقول : وما أعجب شهر ربيع الأول فى ارتباطه بتاريخ مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد ولد فيه ، وبأت هجرته فيه ، ووصل إلى المدينة فيه ، وانتقل إلى الرفيق الأعلى فيه عند وفاته ، وإذ كان الشاعر القديم قال فى مولده المبارك :

يقول لنا لسان الحال منه      وقول الحق يعذب للسميع

فإنى والزمان وشهر وضعى      ربيع فى ربيع فى ربيع

فإنى أقول مكان البيت الأخير :

فإنى والزكان ووصف دينى      ربيع فى ربيع فى ربيع

فقد كانت رسالته العظمى صلى الله عليه وسلم ربيع الحياة ، حيث أحيأ بالإيمان أرواح المؤمنين بعد أن كانت ميتة بالكفر وصدق سبحانه إذ يقول فى سورة الأنعام فى التمييز بين المؤمن والكافر : ( أومن كان

<sup>١</sup> - قباء ضاحية جنوب المدينة وتبعد عنها نحو ٣ كيلو مترات .

ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون ) واذ يقول فى السورة ذاتها ( فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون \* وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون) ، وما أسعد الثابتين على الإيمان بقواه تعالى فى سورة المائدة ( يا أيها الذين آمنوا من يرد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعززة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ) فى ذلك القول الكريم بشرى عظيمة للثابتين على الإيمان بأن الله تعالى يحبهم ويحبونه ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

#### ما أعجب يوم الأثنين :

وكذلك أقول ما أعجب يوم الأثنين فى تاريخه صلى الله عليه وسلم ، فقد ولد فيه ، ونبى يوم الأثنين ، وخرج من الغار إلى المدينة يوم الأثنين ووصل قباء يوم الأثنين ، وانتقل إلى الرفيق الأعلى عند وفاته يوم الأثنين ، فما أبرك يوم الأثنين .

#### بناء مسجد قباء :

قال ابن إسحق : فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى عمرو بن عوف يوم الأثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس وأسس مسجد قباء .

أقول : وهو أول مسجد بنى فى الإسلام ، وقد قرأت فى تاريخه أن سيدنا جبريل عليه السلام هو الذى تحرى قبلته وأن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من وضع حجر فى قبلته ثم جاء سيدنا أبو بكر فوضع حجر إلى حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أخذ الناس فى البنيان وهو المشار إليه كما فى البخارى بقوله تعالى فى سورة التوبة ( لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ) وفى ذلك القول الكريم ثناء على المسجد والمصلين فيه وهم الأنصار من بنى عمرو بن عوف .

وقد ذهب الإمام فخر الرازى فى تفسيريه إلى أن المراد بهذه الطهارة التى وصفهم الله بها هى الطهارة من الذنوب والمعاصى لأن التطهر من الذنوب هو المؤثر فى القرب من عز وجل واستحقاق ثوابه . وقيل يحتمل أنه محمول على طهارة الباطن من الكفر والنفاق والمعاصى وطهارة الظاهر من الأحداث والنجاسات .

قال ابن اسحق : ثم خرج صلى الله عليه وسلم من قباء يوم الجمعة ( أى قاصدا المدينة ) فأدركته الجمعة فى بنى سالم بن عوف فصلاها صلى الله عليه وسلم فى المسجد الذى ببطن الوادى فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة المنورة ( سمي هذا المكان مسجدا لأنه صلى الله عليه وسلم صلى فيه وسجد ) .

#### الأنصار يرحبون :

وقد تلقى أهل المدينة ( وهم سادتنا الأنصار ) مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفرح الغامر والاستبشار البالغ ، وغنت بين يديه

وعلى مسمعه بنات النجار ( من سادتنا الخرج وهم أخوال جده عبد المطلب أبى هاشم وأخوال أبيه صلى الله عليه وسلم ) الأغنية المشهورة :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع  
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع  
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

وكانت بيوت الأنصار يتزاحمون على ناقته ويمسكون بزمامها وهى سائرة ويقولون : هلم إلينا يارسول الله ، إلى العدد والعدة والمنعة ، فيقول صلى الله عليه وسلم لهم : خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، حتى إذا أتت إلى دار بنى مالك بن النجار بركت عند الباب الحالى للمسجد النبوى .  
سعادة أبى أيوب الأنصارى :

وقد احتمل أبو أيوب الأنصارى رضى الله عنه رحل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأدخله داره ، فلما أراد غيره أن يستضيفه صلى الله عليه وسلم قال : المرء مع رحله . كما قال صلى الله عليه وسلم : أنزل عند بنى النجار أخوال عبد المطلب أكرمهم بذلك . فالله ما أوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم لذوى رحمه أحياء وأمواتا .

وبقى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ضيافة سيدنا أبى أيوب الأنصارى حتى بنى مسجده ومسأكنه . وقد عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بناء المسجد فسارع المهاجرون والأنصار بالعمل فيه ، وتغنى قائلهم :

لئن قعدنا والنبي يعمل لذاك منا العمل المضلل

وكان المسلمون يرتجزون وهم يعملون :

لا عيش إلا عيش الآخرة اللهم أرحم الأنصار والمهاجرة

### المؤخاه بين المهاجرين والأنصار :

وقد تلاحق المهاجرون إلى المدينة المنورة ولم يبقى بكمة أحد إلا متون أو محبوس فأخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار وقال لهم : تأخوا فى الله أخوين أخوين ثم أخذ بيد سيدنا على بن أبى طالب فقال : هذا أخى ، فما أعظم شرفه بهذا الإخاء الذى شرفه به رسول الله صلى الله عليه وسلم . يشيد بأمر الأخوة التى أقامها مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم السيد/دل محمد الباكستانى عميد الكلية الإسلامية بلاهور فيقول فيما ترجمه عنه إلى العربية صديقى العلامة الشيخ الصاوى شعلان :

غرس الأخوة أصله من يثرب<sup>١</sup>      هى جنة المأوى وغارسها النبى  
 إن ضلت الدنيا أعاد صوابها      نور المدينة لاشعاع الكوكب  
 بعث النبى بها الجماعة موكبا      فإذا الملائكة فى صفوف الموكب  
 وسقى الأخوة كوثرًا من نوره      فالظامئ الحيران من لم يشرب  
 والسابقون الأولون لحيه      قد فارقوا الأوطان والأوطارا  
 لم يذكروا مالا ولا ولدا ولا      زوجا ولا أهلا ولا أصهارا  
 تركوت جوار الظالمين فبدلوا      بالأهل أهلا والديار ديارا  
 يا فوز أحرار العقائد عندما      أهدى الإله إليهم الأبرارا  
 فإذا الجميع مهاجرون لجنة      وترى الجميع لدينه أنصارا

<sup>١</sup> - يثرب هو أسم المدينة قديما ثم سميت فى الإسلام طيبة وطابة كما ورد فى السنة وسميت كذلك المدينة بالتعريف فصار ذلك الاسم علما عليها ويقال لمن انتسب إليها مدنى ويقال لغيرها من المدن " مدينة " بغير التعريف ويقال لمن انتسب إليها مدينى .

ويقول السهيلي إن الحكمة فى ذاك الأثناء أن يذهب صلى الله عليه وسلم عن المهاجرين وحشة الغربية ، ويؤنسهم بعد مفارقة الأهل والعشيرة ويشد أزهم بعضهم ببعض ، فلما عز الإسلام ، واجتمع الشمل ، وذهبت الوحشة ، أنزل الله سبحانه وتعالى فى سورة الأنفال : ( وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ) يعنى فى الميراث ، ثم جعل سبحانه المؤمنين كلهم إخوة فقال تعالى فى سورة الحجرات ( إنما المؤمنون إخوة ) يعنى فى التوادد وشمول الدعوة .

نحن وأسلافنا الصالحون :

ومن حق السابقين الأولين علينا أن ندعوا لهم بالمغفرة والرضوان كما علمنا الله تعالى . وقد قلت فى كتابى " رسول الله فى القرآن العظيم " لقد جاءك الإسلام ياأخى سهلا ، لأنهم تحملوا عنك فيه الصعب فأنكر الفضل لأهله ولا تكن من الجاحدين ، . . . وقد صدقوا فيما عاهدوا الله عليه فاصدق معهم فيما أدبك الله به ووجهك إليه فى قوله تعالى ( والذين جاءو من بعدهم . . . سورة الحشر ) وكيف تبخل عليهم بدعائك وقد جادوا من أجلك بأرواحهم ، وخلفوا لك السعادة فى إسلامك .

التاريخ الهجرى :

وفى خلافة أمير المؤمنين عمر رضى الله اتخذت الهجرة مبدأ للتاريخ الإسلامى - كما أشرنا إلى ذلك أنفا - ، وهو ما يدلنا على تقدير سادتنا الصحابة لآثار الهجرة ، فقد نظروا إليها على أنها أهم حادث فى الإسلام ، حيث اشتدت بالهجرة قوة المسلمين ، كما عز بالهجرة الإسلام واندحر أعداؤه باتحاد كلمة المسلمين وجهادهم المتواصل بأنفسهم وأموالهم .

وكان اتخاذ التاريخ الإسلامى فى السنة السابعة عشر من الهجرة ، وهو تاريخ الدولة الإسلامية من يومئذ . أما قبل ذلك فكان العرب يؤرخون بحوادثهم الهامة كعام الفيل وحرب البسوس ، ولئن كانت الهجرة تمت فى ربيع الأول ، فإن المسلمين اعتادوا أن يحتفلوا بذكراها فى شهر محرم لأنه بداية السنة من جهة ولأن التفكير فى الهجرة بدأ فيه من جهة أخرى .  
شرف المدينة المنورة :

وقد شرف الله تعالى المدينة المنورة بهجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها ، وقدمها فى القرآن الكريم على مكة المكرمة وذلك فى قوله تعالى ( وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا ) كما جعلها مثوى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت عاصمة الدولة الإسلامية فى أزهى العصور حيث كانت مركزا للخلافة الأولى وكان رأى أهلها ملزما لسائر المسلمين فى المشارق والمغرب وكانت مركز الحديث النبوى والفقہ الإسلامى وكانت تشد لها الرجال ولا يخفك أن الله تعالى سماها فى كتابه الكريم " أرض الله " <sup>١</sup> وذلك فى قوله سبحانه فى سورة النساء ناعيا على المسلمين الذين تخلفوا عن الهجرة إليها وأقاموا مع الكفار بمكة دون عذر شرعى ( إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيما كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا \* إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا \* فأولئك عسى أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا ) . قال

<sup>١</sup> - فنسب سبحانه أرضها إليه تشريفا لها كما قال فى البيت الحرام ( بيتى ) وكما قال فى ناقة صالح ( ناقة الله ) .

ابن عباس رضى الله عنهما : كنت أنا وأمى ممن عفا الله عنهم ( لأنه كان من الولدان عندئذ ) . وفى الآية الأولى إشارة واضحة إلى وجوب الهجرة من موضع لا يتمكن المسلم فيه من إقامة الدين بأى سبب كان لأن معنى قوله تعالى ( فيم كنتم ) وهو الذى قالت له الملائكة عند موتهم أى أكنتم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أم كنتم مشركين فطاب لكم البقاء مع المشركين . ومعنى ( كنا مستضعفين فى الأرض ) أى اعتذروا بعذر غير صحيح لأنهم كانوا يستطيعون الحيلة ويهتدون السبيل وكانت هجرتهم واجبة شرعا لأن الهجرة قبل فتح مكة كانت واجبة وقد لقنتهم الملائكة الدرس القيم بقولهم لهم ( ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ) وهو درس يعلمنا الله به هجرة المؤمن من أرض لا يأمن فيها على سلامة دينه وتكون هجرته عندئذ هجرة فى سبيل الله ، ورد فى الحديث الشريف : " من فر بدينه من أرض إلى أرض وإن كانت شبرا من الأرض استوجب له الجنة وكان رفيق أبيه إبراهيم ونبيه محمد عليهما الصلاة والسلام " .

وحق لسيدى أبو محمد البكرى أن يتغنى بمجد المدينة فيقول :

|                             |                              |
|-----------------------------|------------------------------|
| دار الحبيب أحق أن تهواها    | ونحن من طرب إلى ذكراها       |
| وعلى الجفون متى همت بزورة   | يا ابن الكرام عليك أن تغشاها |
| لا كالمدينة منزل وكفى بها   | شرفا حلول محمد بغناها        |
| جزم الجميع بأن خير الأرض ما | قد حاط ذات المصطفى وحوها     |
| ونعم لقد صدقوا بساكنها علت  | كالنفس حين زكت زكى مأواها    |

بشرى المهاجرين فى سبيل الله :

وقد قال تعالى مبشرا المهاجرين فى سبيل الله بشرى عظيمة فى قوله



تعالى بعد الآيتين السابقتين ( ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة  
ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله  
غفورا رحيفا ) وهذه الآية الكريمة نزلت فى شأن صحابى جليل هو سيدنا جندب بن ضمرة  
وكان شيخا كبيرا فى السن ومريضا ملازما فراشه فقد سمع قوله تعالى ( إن الذين توفاهم  
الملائكة ظالما أنفسهم . . . ) فقال : والله أنا ممن استثنى الله عز وجل فلست ممن  
لايستطيعون حيلة ، ولى من المال ما يبلغنى إلى المدينة وأبعد منها ، والله لا أبيت الليلة  
بمكة ، وقال لأبنائه : أخرجونى ، فخرجوا به على سرير حتى أتى التنعيم فى ضواحي مكة ،  
فصفق بيمينه على شماله ثم قال : هذه لك وهذه لرسولك ، أبايعك على ما بايعك رسولك ، ثم  
مات ، فبلغ خبره أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : لو وافى المدينة لكان أتم  
وأوفى فى الأجر ، وضحك المشركون وقالوا : ما أدرك ما طلب فأنزل الله تعالى ( ومن يخرج  
من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله . . الآية ) وتصفيقه بيمينه على شماله رضى الله عنه فيه  
تمثيل مبايعة الله على الإيمان والطاعة بمبايعة رسول الله صلى الله عليه وسلم إياه .  
ومعنى ( فقد وقع أجره على الله ) أى وجب أجر هجرته على الله بإيجابه سبحانه على نفسه  
تفضلا منه وكرما ، لا وجوب استحقاق وتحتم ، وقال العلماء : ويدخل فى هذا الحكم من قصد  
فعل طاعة من الطاعات ثم عجز عن إتمامها فيكتب الله له ثواب تلك الطاعة كاملة ، ومعنى (   
على الله ) أى عند الله وفى علمه تعالى ، ومعنى ( وكان الله غفورا رحيفا ) أى بكمال ثواب  
هجرته التى لم تتم لأنتهاء أجله بالموت ، وكان فى نيته إتمامها . وقد قال صلى الله عليه  
وسلم " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرىء ما نوى ،

فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه " .

### مغزى الاحتفال بذكرى الهجرة :

أيها الأعزاء

إن احتفال جمعيتكم سنويا بذكرى الهجرة عمل جليل ذو مغزى كبير ، لأن أحياء هذه الذكرى المجيدة له معان سامية كثيرة ، ومنها كما يجيش في صدرى المعانى الأتية :

أولا - إحياء ذكرى الهجرة يتضمن الفرح والاعتزاز بعقيدة الإسلام التى يقوم أساسها على أن لا إله إلا الله محمد رسول الله وهى كلمة التقوى قال تعالى واصفا موقف الصحابة الكرام منها فى سورة الفتح ( إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شئ عليما ) وكان ذلك الوصف فى صلح الحديبية فى السنة السادسة للهجرة ، والذى انتشر الإسلام بعده وقويت شوكته حتى بلغ عدد من أسلم بعده حتى فتح مكة فى السنة الثامنة من الهجرة ، عشرة أضعاف من أسلموا قبله ، وكانت قوة الشوكة سببا لفتح مكة الكرامة وقد حرم الله مكة على المشركين فى السنة التاسعة وجعلها للمسلمين وحدهم وذلك بقوله الكريم ( يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة<sup>١</sup> فسوف يغنيكم الله

<sup>١</sup> - العيلة هى الفقر .

من فضله إن شاء إن الله عليما حكيما ) وكانوا يظنون أن خروج المشركين من مكة يؤثر على أحوالهم الاقتصادية التي ترتبط بها معاشهم ، فطمأنهم سبحانه بأنه سيغنيهم من فضله .

ثانيا - كما يتضمن إحياء الذكرى تقديرا لفضل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه في الهجرة والتضحية في سبيلها من هجر الأهل والوطن والمال احتفاظا بالعقيدة والعيش في بيئة الأنصار الكرام الذين دعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم للقدوم عليهم في المدينة المنورة وبايعوه في موسم الحج عند العقبة بما يحموه مما يحموه منه أنفسهم وأهليهم ، ومدوا أيديهم قائلين له : هذه أيدينا يارسول الله فخذ لنفسك وربك ما أحببت ، فبايعهم على الإسلام وعلى حمايته كما تقدم .

وكيف لا يبايعوته صلى الله عليه وسلم على الإسلام وعلى حمايته وقد فرحوا كل الفرح بمقامه الشريف بينهم وفي مقامه بينهم حيا ومتنقلا إلى الرفيق الأعلى سعادتهم الدائمة في الدنيا والآخرة .

ثالثا - وفي الاحتفال الكشف للناشئين عن حكمة الهجرة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة ، فقد قوى الإسلام باتحاد الكلمة بيت المهاجرين والأنصار وكانت الثمرة الأولى العاجلة هي النصر المبين على أهل مكة المعاندين في غزوة بدر الكبرى التي وقعت في السنة الثانية من الهجرة وكان المسلمون أقل منهم عددا وعدة ولكن أيدهم الله بالملائكة فقاتلت معهم ، وقد برزت بهذا النصر مكانة المسلمين وهابهم أعدائهم بعد أن كانوا يستخفون بهم ، كما قويت شجاعة المسلمين في لقاء أعدائهم بمكة والمدينة وسائر الجزيرة العربية بل وما وراءها

وتوالت انتصارات المسلمين فى الغزوات اللاحقة حتى استقرت كلمة الإسلام ودخل الناس فى دين الله أفواجا ثم اتسعت بسرعة فائقة الفتوحات الإسلامية شرقا وغربا كما يثبت تاريخنا المشرف الذى لم يسبق له مثل فى تاريخ أمة قبلنا .

وأعجبوا لما يحكيه القرآن الكريم من قتال الملائكة الأطهار بقيادة سيدنا جبريل عليه السلام فى صفوف سادتنا الصحابة بقيادة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن للملائكة عهد بقتال البشر قبل ذلك ، فقد قال تعالى فى سورة الأنفال مبينا عونه سبحانه للمسلمين ( إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين \* وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم \* إذ يغشىكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام \* إذ يوحي ربك إلى الملائكة أنى معكم فتبتوا الذين آمنوا سألنى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان \* ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب \* ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار ) .

واعجبوا كذلك كيف ساند الله تعالى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رمى أعدائه بالحصى من كفه الشريف وقال فى رميته " شأهت الوجوه فأصابتهم وعميت أبصارهم وتفرقوا رهبا ، وذلك ما يحكيه الله تعالى فى سورة الأنفال بقوله الكريم ( فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم \* ذللكم وأن الله موهن كيد الكافرين ) .

وانظروا كيف قوى مولانا رسول الله معنويات أصحابه الكرام ووعدهم بمدد يأتيهم من ملائكة السماء وهو ما يحكيه قوله تعالى فى سورة آل عمران ( ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلمك تشكرون \* إذ تقول للمؤمنين ألن يكفكم أن يمدكم ربكم بثلاثة ألف من الملائكة منزلين \* بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين \* وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم \* ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكتبهم فينقلبوا خائبين ) .

رابعا - وفى الاحتفال كذلك تعليم الناشئين أن الأخوة القائمة بين المسلمين برابطة العقيدة الواحدة إنما هى نعمة كبرى من نعم الله عليهم لأنها تورثهم القوة والتعاون الصادق فى وجه الأعداء ، فإن اختلفت كلمتهم وتفرقت جماعتهم ضعف شوكتهم واستخف بهم أعداؤهم ووسعوا بوشايتهم هوة الخلاف بينهم حتى لا يلتئم شملهم ، وهو ما تنبهنا إليه كتاب الله الكريم ويحذرنا من عاقبه كما تنبهنا إليه السنة النبوية الشريفة .

واستمعوا فى هذا المقام إلى قوله تعالى فى سورة آل عمران وكان اليهود قد دسوا بين الأوس والخزرج من سادتنا الأنصار حيث غاظ اليهود أئتلافهم بالإسلام بعد أن كانوا متعادين فى الجاهلية ، وأدت الدسيسة إلى استعداد الفريقين للحرب . وقالوا السلاح السلاح ، فسارع مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم فيمن معه من المهاجرين وتلا عليهم من سورة آل عمران قوله تعالى الذى نزل فى هذا الشأن ( يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بع إيمانكم كافرين وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم

رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم \* يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون \* واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ) وقال لهم صلى الله عليه وسلم يومئذ . " يا معشر المسلمين ، أبدوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وقطع عنكم إصر الجاهلية وألف بينكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا الله الله ، قالوا فأحس القوم أنها كانت نزعة شيطان وكيدا من أعدائهم اليهود فألقوا ل سلاح من أيديهم وبكوا واعتنق بعضهم بعضا ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين . وقد قال سيدنا جابر بن عبد الله النصارى رضى الله عنه : فما رأيت يوما أقبح أولا وأحسن لآخر من ذلك اليوم .

أقول : ولئن كانت تلك الآيات الناصحة الكريمة قد نزلت فى شأن تلك الحادثة التى وقعت بين الأوس والخزرج ، فإن القاعدة الأصولية تقول : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وما أحوج المسلمين اليوم إلى تدبر الآيات المتقدمة فما أشبه اليوم بالبارحة ليتقوا ضرر الفرقة التى يسعى إليها أعداؤهم الظاهرين والملتسترين ، وما أجدر شبابنا بالتيقظ لكيد الكافرين الذين ينشرون دعايتهم للكفر والتمدد على الدين وأهله ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا لناخذ العبرة النافعة من الكتاب والسنة ليكون المسلمون فى المشارق والمغارب من عرب وعجم يدا واحدة فى رد كيد الأعداء ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : الجماعة رحمة والفرقة عذاب ويد الله مع الجماعة .

وأخيرا وليس آخرا ألقى على سمعكم نجوى الأستاذ حافظ بدوى رئيس مجلس الشعب السابق لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تضمنها مقال قيم لسيادته نشر من أيام بصحيفة الأهرام ، فقد قال مناجيا مد الله فى عمره : سيدى يا رسول الله كم فى هجرتك من عبر ، وهى قاموس للأحرار ودستور للبشر .

كانت هجرتك إيمانا بالمبدأ وأصرارا عليه ، وتمسكا بالحق وسعيا إليه وايدانا بفجر جديد يشرق على الحياة ، وإعلانا لجهاد مجيد ضد الظالمين والطغاة ، فحملت بيدك السنان ، وخضت بنفسك الميدان ، وبعث فى جنك القوة والإيمان ، فباعوا أرواحهم لله ، ورأوا فى الاستشهاد أسمى حياة ، وكان النصر المؤزر من الله .  
سيدى يا رسول الله :

ستبقى هجرتك دائما عيدا لنا ، ونورا لطريقنا ، وهاديا لكفاحنا ، وإيمانا واصرارا وثباتا على حقنا ، حتى نحرر كل شبر من أرضنا ، وحتى نحقق العزة والكرامة لبلدنا ( والله العزة ولرسوله وللمؤمنين ) .

وختاما أقول اللهم وحد كلمتنا التى فرقها المستعمرون ، واجمع شملنا الذى بددته الأهواء المغرضة وردنا إلى سالف مجدنا الذى قام لرفعة الإسلام وعز المسلمين وكن فى عون ولاية أمورنا كما كنت فى عون أسلافنا الصالحين ، وإنك على ما تشاء قدير ، يا نعم المولى ويا نعم النصير : غفرانك ربنا وإليك المصير ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .  
واشكر لكم حسن استماعكم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .